



رولا الركبي*

أبي، حزب البعث، جيش الإنقاذ والثورة

تسترجع الكاتبة سيرة أبيها فيصل الركبي الذي توجه إلى فلسطين ضمن جيش الإنقاذ في حرب النكبة في سنة ١٩٤٨، ويتماوج السرد بين رواياتها عنه وبين ما كتبه من يوميات عن الحرب. في مشوار حياته، بين مولده في مدينته حماة في سنة ١٩٢١ ووفاته فيها بداية آذار / مارس ٢٠١٢، تقرّبنا الكاتبة من عمر عايش فيه فيصل الركبي قضايا كبرى أمدته بحكمة لم تفارق روح الثورة فيه فظلاً شاباً، بخلاف كثير من مجايليه العربيين كما تبين ابنته.

الكلمة من شهامة وكرم واحترام. في نهاية ثلاثينيات القرن الماضي عاش البلد حالة فوران. كانت سورية تغلي تظاهرات واغتيالات وتشكّل كتل سياسية جديدة: عصبة العمل القومي؛ حركة الإحياء العربي؛ حركة نصرّة العراق؛ وقد وُلد جميعها من رحم ثقافة يسارية وعربية، ومن اعتزاز عميق الجذور بتاريخ الأمة مع ارتباط عضوي بلغتها التي شكلت حجر الأساس في بنية تفكير رجالات جيل قرأ "الأغاني" والقرآن و"العقد الفريد" والمتنبي. لن أتحدث عن تاريخ تشكيل حزب البعث فقد كتب الكثير عنه، لكن ما يهمني هو العلاقة الوثيقة بين فكر الحزب التقدمي الثوري وارتباطه

من رحم طبقة وسطى متعلمة ولد إحساس أبي، فيصل الركبي، بالحق والعدالة الذي رافقه العمر كله وكان قضية حياته الأساسية، بداية بتشكيل "حزب البعث" مع ميشال عفلق وصلاح البيطار، مروراً بالتطوع في جيش الإنقاذ الذي توجه إلى فلسطين. مسيرة طويلة من السجن والتشرد رفضاً لأي شكل من أشكال الاستبداد والقمع التي مورست على الشعب السوري، وقد توجّه إيمانه العميق بالثورة وحتمية انتصارها. عاش ومات فارساً في زمنه بكل ما تعنيه هذه

* ابنة فيصل الركبي.

كتب أبي في صفحة أحد دفاتر يومياته،
المؤرخة باليوم، وبخطه الصغير الذي يشبه
خط وصفات الطبيب:

عدنا إلى دمشق عن طريق مرجعيون
[و] وصلنا مساء، قابلت أحمد السواح،
أخبرني أن فرقة اليرموك ستدخل قريباً
إلى فلسطين وأنها تحتاج لطبيب وأنهم
لم يجدوا طبيباً حتى الآن، عندها شعرت
أن عليّ أن أغير اتجاهي وأن أسلك سبيلاً
غير تلك التي قضيت مدة أهْيء نفسي لها،
الواجب يدعوني في فلسطين. منذ أعلن
مشروع التقسيم كنت أشعر أنه سيأتي يوم
أحمل فيه السلاح إلى فلسطين، وقد كتبت
حينها إلى جمال [الأتاسي] أنني سأكون
في القريب إما عنده في باريس أو في
فلسطين. اليوم لم يبق مجال للاختيار،
فالسبيل إلى فلسطين واضحة حيث يدعوني
الدم العربي الزكي الذي يراق على أرضها
المقدسة، كيف لي أن أقاوم نداء أولئك الذين
يصرخون أننا نذبح ذبح النعاج فإلام أنتم
لا تتحركون.

بممارسات ذاك الجيل كما عايشها والدي.
في السبعين من عمره اضطر جدي إلى السفر
إلى المملكة العربية السعودية كمحاسب قانوني. لم
تكن الحال ضيقة لكنه أراد تلبية رغبة فيصل في
السفر إلى فرنسا للتخصص بعد تخرجه من كلية
الطب في دمشق في سنة ١٩٤٧. وفي تلك السنة،
في مقهى على رصيف الميناء في بيروت، جلس
أبي ينظر إلى الأفق، ففي الغد ستبحر باخرته إلى
فرنسا، غير أن قلبه متوجس فالأخبار العربية
غير مطمئنة والحكام العرب لا يوجد لديهم دم
بحسب قوله. وفي عمق المقهى جهاز راديو كبير
التف حوله الرواد: قررت الجامعة العربية أن
تبدأ المقاومة غير الرسمية قبل أن يحين موعد
تقسيم فلسطين، وأعلن تشكيل جيش الإنقاذ من
المجاهدين ويشرف عليهم ضباط من مختلف
الجيش العربية يعملون كمتطوعين أيضاً، ويبقى
باب التطوع مفتوحاً للقتال في فلسطين.
فرغ المقهى، وعاد أبي إلى دمشق للتطوع
في جيش الإنقاذ كطبيب مقاتل، واشترى بالمال
الذي جمعه أبوه في الغربية ليكمل به تعليمه،
أدوية ومعدات طبية، وفي صباح الخميس ٨
كانون الثاني / يناير ١٩٤٨ بدأ تحرك السرية
الأولى في فوج اليرموك الثاني.



من اليمين: فيصل الركني، صلاح الشيشكلي، أكرم الحوراني، حسين عبد اللطيف، جادو عز الدين بعد معركة النبي يوسع (1948)

في الجيش السوري. وكان مع الحملة أكرم الحوراني وعبد الكريم زهور عدي وخليل كلاس وثلاثة أطباء: عبد السلام العجيلي وشوقي الأتاسي وأنا، ولكني كنت طبيب الفوج الرسمي لأنني كنت أول من تقدّم وتطوع لدى القيادة.

من يقرأ يوميات أبي عن جيش الإنقاذ يصيبه الإحباط من هول وصعوبة الأوضاع التي تحرك فيها هؤلاء الشباب، فقد تحدّوا ضعف الإمكانيات العسكرية والمادية موطين أنفسهم على تحمّل أقسى أنواع المشقة فداء لقضيتهم: "أول جريح وصل هو سراج الدين الحريري وقد أصيب في كتفه اليمنى برصاصة اخترقته من

لم يتسنّ لفیصل وداع أهله، كتب لهم بطاقة صغيرة بيّن فيها أنه استبدل فرنسا بفلسطين. لم يتح له وداع أمه وذلك الشيخ الجليل الذي تحمّل من أجله مشقة الذهاب إلى الحجاز في شيخوخته، لكنه كان واثقاً بأنه سيفهم دوافعه ويبارك خطواته.

في الساعة السادسة تحرك الفوج وكانت القافلة تتألف من ٣٠ سيارة شحن مكشوفة تضم ٣٧٥ رجلاً، قائد الحملة الرئيس أديب الشيشكلي ومعه الملازم الأول فتحي الأتاسي ثم الملازم صلاح [ال] شيشكلي والملازم عبد الحميد السراج والملازم شفيق عبيسي [استشهد لاحقاً] وجميعهم ضباط



فيصل الركبي وخليل كلاس

يمكن القول إجمالاً إن صفاً ضاعت نتيجة جبن القيادة وعدم تمكن أمر الحامية من السيطرة على الموقف، الأمر الذي أدى إلى فرار الجنود من مراكزهم واستيلاء اليهود على المراكز المهمة في المدينة. لكن لو كان لدى أمر الحامية الشجاعة والتصميم الكافي لاستطاع إنقاذ الموقف واسترداد هذه المراكز التي ضاعت نتيجة وجود جنود غير مدربين فيها. يمكننا الآن وقد خسرت معركة صفاً وخسرنا فيها معركة فلسطين في الجولة الأولى، أن نقول إن واحداً من أسباب هذه الخسارة أيضاً هو عدم تغيير أمر الحامية ساري الذي لم يستطع تحمّل المسؤولية، والذي لمست فيه القيادة هذا الضعف، وكان عليها أن تغيّره بسواه. وهكذا تكون انتهت بانتهاك معركة صفاً معركة فلسطين الأولى التي قام بها جيش الإنقاذ والذي لم يكن حسن التنظيم، والذي كان مزيجاً من العصابات والجيوش النظامية.

وجاء سقوط الناصرة في أواسط تموز / يوليو ليشكل الضربة القاضية:

الجمعة ١٦ تموز [يوليو] ١٩٤٨ وهكذا تمت الكارثة الكبرى، ضياع الناصرة بعد ضياع اللد والرملة الذي كان مفتعلاً، والذي تخلى عنهما الجيش الأردني بإيعاز من الإنجليز لكي يجبروا العرب على القبول بالحل الذي يفرضونه وذلك بوضعهم أمام الأمر الواقع وهو الهزيمة العسكرية. وبسقوط الناصرة خسر العرب المعركة في ميدان القتال وفي ميدان السياسة، إذ إن مجلس الأمن قد أقر الاقتراح الأميركي القتال إن الحرب في فلسطين تهدد الأمن العالمي، وأقروا وجوب وقف القتال في فلسطين فترة ثلاثة أيام.

الأمام إلى الخلف دون أن تصيب العظم وقد أتاني ركباً بغلة وهو يضحك ويبتسم كأنه لم يصب. هذه المعنويات العالية كانت سلاحهم الأساسي وإيمانهم الحقيقي بقضيتهم، الأمر الذي زوّدهم بالجرأة والإقدام ليس على أرض المعركة فحسب، بل أيضاً للموقف في وجه الروتين الإداري والبيروقراطيات العربية المهترئة، والتي تفتقر إلى المبادرة والمسؤولية:

السبت ١٤ شباط [فبراير] [١٩٤٨] عدت إلى دمشق وكنت أحمل معي تقارير إلى القيادة عن حركتنا، وكان علينا أن نطلب منها تأمين السيارات اللازمة لتأمين تموين فوجنا. ذهبت لمقابلة فوزي الفاوقجي وبقيت عنده ساعة [و] ودعته على أمل اللقاء في الغد. ذهبت إلى المسؤول عن التموين وهو محمود الهندي، ولما قابلته أدركت تجرد عقلية هؤلاء القوم وأدركت أنهم لا يعملون بإخلاص لإنقاذ فلسطين، وأنه ليس بإمكانهم أن يعملوا أكثر مما عملوا، فهو يعتقد أن فوجنا لا يزال من الممكن إيصال المؤن إليه بواسطة البغال. أفهمته أن اليهود يستعملون أحدث الوسائل وأن عقلية قادتهم عقلية حديثة وتفهم الأمور بجلاء ووضوح وأننا لا نستطيع أن نقاومهم إذا كانت وسائلنا هي الجمال والبغال وعقلية قادتنا هي عقلية أصحاب الجمال والبغال.

تستمر حكايا الكر والفر من انتصارات صغيرة إلى خيانات كبيرة وصغيرة طوال الفترة الممتدة من بداية كانون الثاني / يناير ١٩٤٨ حتى سقوط صفاً في ١٠ أيار / مايو، الأمر الذي شكل ضربة معنوية كبيرة للجنود وأهالي فلسطين، فقد انهارت مقاومة العرب في الشمال تماماً، وبدأ السكان يهربون من منازلهم، وبدأت رحلة التشرد:

الخميس ٢٩ تموز [يوليو] ١٩٤٨
 منذ الصباح غادرتُ المزرعة مع عبد
 الخالق وقد قمنا بجولة لعيادة الجنود
 للمرة الأخيرة، ثم اتجهنا إلى صور.
 قابلنا الدكتور [أمين] رويحة [من لبنان]
 وأخبرناه أننا قد عزمنا على ترك قوات
 الإنقاذ لاعتقادنا أن مهمتنا قد انتهت، وأن
 الدافع الذي دفعنا على المجيء قد زال، ثم
 تابعنا مسيرنا إلى بيروت ومنها إلى دمشق.
 استقر فيصل بعد عودته في حماة وفتح
 عيادته الخاصة التي وضعت في مواجهة
 مشكلة لم يعتد عليها وهي مشكلة الأجور،
 إذ إنه لم يكن قد اعتاد تناول أجر في مقابل
 عمله، ولهذا فإن أكثر زبائنه كانوا بالمجان.
 وبما أن أكثر الناس في مدينتي كانوا آنذاك
 من الفقراء ولا طاقة لديهم على دفع التكاليف،
 فإن فيصل خصص يوماً للعيادة المجانية

متأخرة في أثناء واحدة من هروباته الكبرى.
 وعيت الحياة وأبي بين حبس أو منفى،
 وما زلت أسمع ذلك الطرق العنيف على باب
 بيتنا تحت القلعة في ذلك الليل القارص، وما
 زلت أرى الجنود بأقدامهم الثقيلة وأسلحتهم
 يسحبونك وراءهم ونساء العائلة يحاولن
 تخليصك من أيديهم. ما زلت أسمع ضحكتك
 المجلجلة لأنك ارتديت فرديّ حذاء مختلفتين.
 حينها، وقفنا نحن الأطفال الأربعة ننظر من
 النافذة، لم نضحك، وأذكر أنني ضمنت إخوتي
 قائلة: لا تخافوا سيعود غداً. وفي أثناء فترة
 السجن تلك استيقظنا في أحد الصباحات على
 ضوء متسرب من الجدار، أشعة الشمس في
 عيني مباشرة بينما تشكل شق عمودي على
 امتداد الحائط. جاء الأهل والجيران ثم مهندس
 البلدية: هناك قناة ماء تفجرت، ويجب إخلاء
 المنزل فوراً. بدأت المباحثات بشأن أين نذهب،
 أبي في السجن والمنزل الجديد ما زال في قيد
 الإنشاء، فقرر الكبار أن نتوزع بين منزل عمتي
 ومنزل جدتي ريثما نجد منزلاً للإيجار. تم
 نقل عفش البيت إلى مستودع المنزل الجديد في
 غضون ساعتين، وفي خلال ساعة من الزمن
 غص المنزل بالأصدقاء وشباب الحزب العربي
 الاشتراكي كما كانت تسميته في ذلك الوقت.
 سحرتني تلك الوجوه الجديدة، تلك الجموع
 في أسفل المنزل، لم يأت عامل أو عتال، مئات
 الأيدي الصديقة لملمت لعبنا وأشياءنا، ثياب
 أبي، مكتبته وتكفلت عمتي بأوراق الحزب. ومع
 حلول المساء كان المنزل فارغاً، وتوجب أن
 نغادر المكان نحن أيضاً، رفضت أختي خالدة
 مغادرة المنزل من دون أن تأخذ صديقها الزيز
 معها!



لمن يحتاج إليها، ولأعضاء الحزب طبعاً،
 ثم بمساعدة صديقيه القريبين أحمد السواح
 وجمال الأتاسي افتتح المشفى الأهلي، وبهذا
 يكون قد حقق جزءاً من حلمه، فضلاً عن
 تحقيق الجزء الشخصي من الحلم وهو بناء
 عائلة، بينما تأجل حلمه بالتخصص إلى فترة

استمر مسلسل الحبس والفرار حتى مجيء
 حافظ الأسد إلى السلطة وإصداره عفواً عاماً
 بحق اللاجئيين السياسيين خارج البلد. قرر
 أبي العودة إلى سورية على خلاف رفاقه

تحقيقه. كان يقول إنه لولا هذا الكرسي لكنت في الشارع مع المتظاهرين. لم ير في قيام الثورة، على الرغم من عروبتة ومواقفه القومية والتقدمية، خطراً يهدد قناعته كما يدعي أبناء جيله العروبي عامة، فلا خطر الأسلمة أقنعه، ولا خطر التدخل الخارجي أخافه. كان يقول إن شعار جيلنا كان "السجن ولا المذلة"، واليوم شعار الثورة السورية هو "الموت ولا المذلة". لقد وصلنا إلى نقطة اللارجوع. غاب الفيصل قبل أن يرى انتصار الثورة، لكن روحه في عليائها تشد على سواعد الشباب وتهتف معهم "سورية بدّها حرية". ■

الذين قرروا الذهاب إلى العراق. عاد إلى حماة واعتزل العمل الحزبي ليقينه بأن بطش الأيام المقبلة لن يعرف حدوداً، بينما استمر في عمله السياسي والمدني كزعيم في مدينته. لم تتغير ثوابته وأولوياته من رفض لكل أشكال التعصب والطائفية، إلى إيمان عميق بقضية الشعب الفلسطيني وقضايا التحرر في العالم. وقف بوجه التدجين ولم يغير موقفه من النظام حتى الرمق الأخير. تحمس كثيراً للثورة السورية، وعاد إلى عينيه بريقهما، وعاود التواصل مع الجيل الجديد وأمن بدوره في إحداث التغيير، وبأنه سيحقق ما فشل جيله في

صدر حديثاً عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية

دليل إسرائيل العام ٢٠١١

رئيس التحرير

كميل منصور

٨٠٠ صفحة ٢٦ دولاراً

صدر حديثاً عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية

فلسطين

دروس الماضي وتحديات الحاضر

واستراتيجيات المستقبل

١- فلسطين والفلسطينيون

تحرير

جميل هلال

١٧٧ صفحة ١٢ دولاراً